المقياس: فلسفة التاريخ

المستوى: الثانية فلسفة /ليسانس

الدكتور: و/ حيدوسي

المحاضرة 1:مدخل إلى فلسفة التاريخ

تمهيد :

إن كلمة تاريخ تعني مجموعة الحوادث التي ظهرت في حياة البشرية،والتاريخ دراسة للتطور البشري في جميع جوانبه السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والروحية، أياً كانت معالم هذا التطور وظواهره واتجاهاته.[1] **وعلم التاريخ** هو ذلك الفرع من المعرفة الإنسانية الذي يستهدف جمع المعلومات عن الماضي وتحقيقها وتسجيلها وتفسيرها، فهو يسجل أحداث الماضي في تسلسلها وتعاقبها، ولكنه لا يقف عند تسجيل هذه الأحداث، وإنما يحاول - عن طريق إبراز الترابط بين هذه الأحداث وتوضيح علاقة السببية بينها - أن يفسر التطور الذي طرأ على حياة الأمم والمجتمعات والحضارات المختلفة، وأن يبين كيف حدث هذا التطور ولماذا حدث[2] .

أما فلسفة التاريخ فتتناول بالدراسة المسائل الأساسية التالية:ما معنى التاريخ؟ هل لأحداث التاريخ علية؟وهل تحكمها قوانين موضوعية؟وهل للتاريخ مسار واتجاه؟وإن كان موجودا فما هو؟ويعتقد بعض الباحثين أن خلدون أهم رواد فلسفة التاريخ التي قصد بها الربط بين الأحداث التاريخية وتعليلها، وأن أول من استخدم لفظ (فلسفة التاريخ) هو الفيلسوف الفرنسي فولتير، وقصد بالمصطلح دراسة التاريخ من جهة نظر الفيلسوف، أي دراسة التاريخ دراسة نقدية تستبعد منه الخرافات والأساطير.

وتعرف فلسفة التاريخ بأنها محاولة لتقديم تفسير فلسفي للتاريخ الإنساني ككل، وذلك من خلال تطبيق الفلسفة على التاريخ وهذا ما يتضح من وضوح مباحث الفلسفة الأساسية الثلاثة (الوجود – والمعرفة – والقيم) في فلسفة التاريخ، ففي مبحث المعرفة تتناول فلسفة التاريخ إمكانية معرفة التاريخ، مصدر المعرفة التاريخية، حدود المعرفة التاريخية. وفي

---

[1] رأفت غنيمي الشيخ، فلسفة التاريخ، القاهرة، دار الثقافة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1987م،ص79

[2] المصدر نفسه،ص85

مبحث قيم تبحث في دور العامل الأخلاقي في التطور التاريخي، إمكانية الحكم الأخلاقي على التاريخ .. الخ، الحقيقة التاريخية وطبيعتها .

وتتصف فلسفة التاريخ بجملة من الخصائص منها:

1) الكلية:تتسم فلسفة التاريخ بالكلية، أي أنها تبحث في التاريخ الإنساني ككل.

2)التعليل:كما تتصف التعليل بالكلية، أي أنها تبحث في العوامل الأساسية التي تحكم حركة التطور التاريخي، وقد غلب فلسفة التاريخ الغربية رده إلى عامل واحد (التفسير الأحادي للتاريخ)[3].

والفرق بين فلسفة التاريخ وعلم التاريخ أن فلسفة التاريخ تبحث في التاريخ الإنساني ككل (الكلية) من خلال دراسة المفاهيم السابقة على البحث التاريخي (التجريد) بينما علم التاريخ يبحث في وقائع تاريخية معينة زماناً ومكاناً (الجزئية) وذلك من خلال دراسة هذه الوقائع التاريخية باستخدام المنهج الوصفي (العينية).ويمكن التعبير عن الفرق بين فلسفة التاريخ وعلم التاريخ بأن فلسفة التاريخ إجابة على السؤال لماذا الحدث التاريخي؟ بينما علم التاريخ إجابة على السؤال كيف الحدث التاريخي؟

رغم صعوبة وضع تحديد دقيق لما تعنيه فلسفة التاريخ، فالفكر الحديث رغم تقدمه لا يزال في علم التاريخ وعلم الاجتماع والفلسفة عاجزا عن تقديم تحديد واضح وحاسم لمفهوم هاتين العبارتين، إلا أنه يمكن القول أن فلسفة التاريخ تعرف بأنها **تلك الدراسة التي تعنى بتفسير مجرى التاريخ البشري كله على أساس نظرية فلسفية عامة"**، كما أن **"فلسفة التاريخ في أبسط تعريف لها، عبارة عن النظر إلى التاريخ و العمل على استنباط القوانين العامة الثابتة التي تتطور بموجبها الأمم و الدول على مر القرون و الأجيال.**

وتشير عبارة فلسفة التاريخ الى منظورين أساسيين:

1) دراسة مناهج البحث: وهي تعني الطرق التي يكُتب بها التاريخ، وكيفية التحقق من صحة الوقائع التاريخية، والكشف عن مدى صدق الوقائع ومناقشة فكرة الموضوعية في التاريخ.

2) النشاط التركيبي : وفيه يقدم المؤرخ أو الفيلسوف وجهة نظره عن مسار التاريخ ككل. ويشير فرانسوا شاتليه إلى أن عبارة فلسفة التاريخ يمكن ان تكتسي ثلاث دلالات أساسية: فبمعنى أول تنطبق العبارة على كل كتابة فلسفية تأخذ بعين الاعتبار السمة التاريخية كصيغة أساسية من صيغ الوجود الإنساني تقتضي التفسير والتأويل، وهو ما يتضمن مواقف متضاربة من كتابة التاريخ تختلف باختلاف المؤرخ. وبمعنى ثان تشمل مدونة البحوث الصادرة عن المؤرخين والفلاسفة الذين أرادوا منذ قرنين ان يقيموا المكانة التي تحتلها المعرفة التاريخية في نظام المعارف، مع المقارنة بما تقدمه العلوم الدقيقة، وذلك بتحديد

---

[3] صبحي أحمد محمود،في فلسفة التاريخ، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، 1975م،ص103

موضوعاتها ومناهجها ونمط الحقيقة الذي يمكن ان تبلغه،أما المعنى الأخير فهو تحديد فلسفة التاريخ (كأنطولوجيا للصيرورة)، وهو الذي يحرص على تأكيد ان مسار الإنسان منذ بداية الزمن، يقوم على وحدة عميقة ويمتلك معنى دفيناً، ويمكن أن يضبط هذا المعنى في فكرة القدر الإلهي .

وتنقسم فلسفة المؤلفات التي تنعت بفلسفة التاريخ إلى ثلاثة أنواع :

الأول : هو الألصق بمفهوم الفلسفة التقليدية ويرمي الى الكشف عن منطقٍ باطني يوحد أغراض الحوادث ويوجهها نحو تحقيق غاية مرسومة : نذكر من بين أعلامه : أوغسطين، هيجل، كونت...

الثاني : الذي يعكف على المقارنة بين الوقائع، مميزا المهم منها عن التافه، بالنظر الى مفهوم محوري يمثل قيمة خلقية مثل الدولة أو الحضارة أو الحرية أو العدالة، ومن ابرز ممثليه: ماكيافيللي، فولتير...

الثالث : يعتمد الاستقراء ولا يكاد يختلف عن التاريخ المقارن. يبحث عن الظواهر المتواترة والدورية (الدول والثورات) في أحوال الشعوب والأقوام. ومن المبرزين فيه نذكر : ارنولد توينبي، ألفرد فيبر..

يقودنا هذا التقسيم الى التاريخ كصناعة لا كمجموع حوادث الماضي، فهو تاريخ البشر للبشر وبالبشر ، وهو ما يعني ارتباط كتابة التاريخ بالوعي، وعي المؤرخ وأيديولوجيته الفكرية التي توجهه لحظة كتابته للأحداث. فهناك الكثير من الأحداث التي تقع في الحياة دون ان يتم الالتفات لها أو تدوينها فضلاً عن جعلها حدثا تاريخيا فاصلا- ذلك ان علم التاريخ بدأ في صورة تحقيب، حيث جاءت المرويات التاريخية عقب الملاحم، فنسجت على منوالها، هذه تحكي أخبار الآلهة والعمالقة وتلك تسوق أخبار الملوك (العروي...

وتعبير فلسفة التاريخ هذا لم يستعمل إلا في القرن الثامن عشر الميلادي، و ذلك خلال عصر الأنوار بفرنسا، على يد فولتير ،غير أن التفلسف في التاريخ بدأ فعلا قبل ابتكار هذا التعبير بمدة طويلة لأن فلسفة التاريخ مؤسسة على علم التاريخ، و التاريخ حسب البعض يسير وفق مخطط معين و ليس بطريقة عشوائية،وأن الفلسفة التاريخ هي محاولة معرفة هذا المخطط الذي يتبعه التاريخ في مساره أو الاتجاه الذي يتجه إليه، أو العناية التي عليه في النهاية تحقيقها.

واختلف الدارسون في تحديد مؤسّس هذا النوع من الدراسات، فالباحثون الغربيّون وعلى خلفية المركزية الأوربية ينسبون فلسفة التاريخ إلى المؤرّخ الإيطالي فيكو (١٦٦٨-١٧٤٤م) الذي قسّم التاريخ البشري إلى ثلاثة أدوار: (الدور الإلهي، الدور البطولي، الدور البشري).

ولكن الباحثين العرب والمسلمين يرون أن الفضل يعود إلى ابن خلدون في استكشاف وتأسيس فلسفة التاريخ، فهو أوّل من قال بالأدوار التاريخية لحركة المجتمع في نظريته الأطوار الثلاثة: (البداوة، العمران، الاضمحلال).

وهناك من الدّارسين من يرى أنّ بذور التفكير الفلسفي التاريخي أبعد غوراً من ذلك، فيثمّن جهود المسعودي ، إذ يوجد في مصنّفه ما يشي بالرؤية البيولوجية للتاريخ، حيث يتحدث عن نشأة الدول وشبابها وهرمها، وعلل جميع ذلك، ودعوته إلى ضرورة معرفة المؤرّخ كيف تدخل الآفات على الملك وتزول الدول وتبيد الشرائع والملل والآفات الخارجية المفترضة لذلك، لقد وقف بحقّ على ما أسماه فلاسفة التاريخ المحدثون بـ-الظروف الموضوعية- التي هي نتاج عوامل داخلية وأخرى خارجية تتضافر معها لإحداث حركية التاريخ وصيرورته، هذا فضلاً عن تحوّل هذه الصيرورة لسائر الظواهر المادية والروحية التي توّحدت في خيال المسعودي وتأطّرت في ذهنه تأطيراً عقلانياً.

وكأي بحث معرفي تستهدف فلسفة التاريخ جملة غايات، أهمّها:

أوّلاً: اكتشاف القوانين والسنن التي تحكم التاريخ البشري، والعوامل المؤثّرة في حركة المجتمعات والحضارات، والقوى الفاعلة في اتجاه المسيرة الإنسانية.

ثانياً: فهم التاريخ بشكل أعمق، واكتشاف الروابط المهمّة التي تشدّ الماضي إلى الحاضر، وهذا الأخير بالمستقبل.

ثالثاً: تحديد المستقبل بوضوح ودقّة كمقدّمة لطرح الاستراتيجيات والخطط المرحلية للوصول إليه وبلوغه.

رابعاً: امتلاك وعي تاريخي يسهم في اكتمال منظومة الوعي الإنساني قصد قيام النموذج الحضاري الذي يكفل السعادة للجميع.